المجلس العلمائي الإسلامي
Olamaa Islamic Council

التفقه في الدين

من أجل تأصيل شرعيٍّ على مستوى الفرد والمجتمع

آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم

التفقه في الدين

من أجل تأصيل شرعيٍّ على مستوى الفرد والمجتمع

آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم

هُوية الكتيِّب

الاســـــــــم: التَّفقُّه في الدِّين .. من أجل تأصيل شرعيٍّ على مستوى الفرد والمجتمع

الـمـحـتـوى: مقاطع من خطب سماحة آية الله الشيخ عيسى قاسم (حفظه الله)

الإصـــــدار: المجلس الإسلاميّ العلمائيّ - دائرة الثَّقافة

الإعـــــداد: دائرة الكتابة والتَّأليف

التَّدقـيق اللُّغوي: الشَّيخ حسين الطَّويل

الـطَّـبـعـــة: الأولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم وإخراج: محسن الخبَّاز

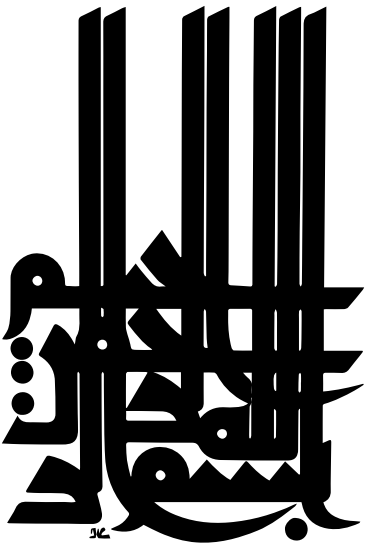

المحتويات

المقدمة ٧

التَّفقُّه في الدِّين ١١

حقيقة التَّفقُّه ١١

أهمية التَّفقُّه ١٣

مسؤوليَّة فرد، ومسؤوليَّة أمَّة! ١٥

النَّفر لتفقُّه أي شيئ؟ ١٨

التَّفقُّه مسؤولية.. ..... ٢٠

عدم التَّفقُّه مأساة! ٢٢

ثمرات التَّفقُّه في الدِّين ٢٢

فضل الفقيه ٢٥

من هو الفقيه؟ ٢٦

فقه الدِّين والدنيا ٣٣

الفقه والعبادة ٣٦

الفقهاء حصون الإسلام ٤٠

آفة الفقه والفقهاء ٤٣

المقدمة

مذ وجد الإنسان في هذه الحياة الدُّنيا أدرك بفطرته وعقله السَّليمين، وبما جاءه من أنبياء ومرسلين وأولياء عليهم السلام أنَّ لهذا الكون خالقًا منعمًا متفضِّلاً، له حقَّ الشُّكر والطَّاعة، وأنَّ هناك نشأة وحياة أخرى خالدة، ونعيمًا مقيمًا يتحدَّد مصير الإنسان فيها من خلال حياته الدُّنيا، وما يحقِّقه من طاعة الله عزَّ وجلَّ وعبادته، والتي لا تتحقَّق إلَّا بما أمر هو - سبحانه وتعالى - به، وبالنَّحو المأمور به، وليس بما تشتهيه الأنفس وفق أطرها وتفكيرها، ومحدوديَّتها وأغلالها من ميول، أو هوى، أو شهوات، أو اعتبارات، أو ضغوطات.

وليس من طريق لمعرفة أوامر الله عزَّ وجلَّ إلَّا ما جعله طريقًا لذلك، وقد جعل سبحانه وتعالى رسوله الأكرم وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)، ومَن أمرونا باتِّباعهم وهم الفقهاء العدول الجامعون للشَّرائط طريقًا لمعرفة أوامره ونواهيه ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[1]

والأوامر والأحكام الشَّرعيَّة شاملة لكلِّ جَنَبَات حياة الإنسان، وعلاقاته مع ربِّه، ونفسه، والناس، والكون، فليس من واقعة

---

١ - الحشر: ٧.

إلَّا ولله ﷻ فيها حكم بأمر أو توجيه، فلا تبعيض ولا تجزيئ للأحكام الشَّرعيَّة، ولا إيمان ببعض الكتاب، وكفر ببعض، ولا فرق بين العبادات والسِّياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها، فكلها خاضعة، ويجب أنْ تخضع لأحكام الشَّريعة الغرَّاء والموازين الفقهيَّة الدَّقيقة.

وإيمانًا وإدراكًا منه لخطورة وأهمية هذا الجانب من حياة المجتمع، قرَّر المجلس الاسلاميُّ العلمائيُّ أنْ يجعل شعاره السنوي للعام الهجري ١٤٣٤هـ تحت عنوان (التَّفقُّه في الدِّين) آملًا في تحقيق انطلاقة كبيرة؛ من أجل تأصيل شرعيٍّ على مستوى الفرد والمجتمع، والإسهام بنهضة تفقيهيَّة وتوعويَّة، تشمل كلَّ فئات المجتمع، ومن مختلف الأعمار والشَّرائح والمهن والمستويات، مستوعبًا كلَّ الجَنَبَات الفرديَّة والأسريَّة والمجتمعيَّة، وكلَّ مناحي الحياة؛ لينهض بمستوى التَّفقُّه والتَّطبيق بما يثبِّت الإقدام في طريق طاعة الله ﷻ ورضوانه، ونيل خير الدنيا والآخرة، وكما هو المرويُّ عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «تفقَّهوا في دين الله، ولا تكونوا أعرابًا، فإنَّه مَن لم يتفقَّه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة، ولم يزكِّ له عملًا».[1]

١ - بحار الأنوار ١/٢١٧، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

والمجلس إذ يطرح هذا الشِّعار وما يتبعه من برامج وخطوات - يعلن عنها لاحقًا -، إنَّما يقوم بدوره وتكليفه بما يمكنه متوكِّلًا على الله ﷻ، ومستعينًا ومستنهضًا لكلِّ الطَّاقات والجهود والجهات أفرادًا وجماعات، من حوزات، وعلماء، وخطباء، ومعاهد، ومؤسَّسات، ومشاريع تعليميَّة دينيَّة، كل بما يمكنه للمساهمة الفاعلة، والتَّفاعل مع شعار العام، والعمل على تفعيله على أوسع نطاق ممكن.[1]

وفي هذا السِّياق يأتي هذا الكتيِّب الذي أعددناه من خطب الجمعة لسماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله)؛ ليكون خطوة على هذا الطَّريق.

نسأل الله أنْ يكتبنا من المتفقِّهين في دينه، العاملين بمرضاته، إنَّه سميع مجيب.

دائرة الكتابة والتَّأليف

المجلس الإسلامي العلمائي

١ - بيان شعار المجلس للعام ١٤٣٤هـ (التَّفقُّه في الدِّين)، المجلس الإسلامي العلمائي، ٦ ذو القعدة الحرام ١٤٣٣هـ، ٢٣ سبتمبر ٢٠١٢ م.

التَّفقُّه في الدِّين

حقيقة التَّفقُّه

الكلمة عن الإمام الباقر عليه السلام: «**الكمال كلُّ الكمال: التَّفقُّه في الدِّين، والصَّبر على النَّائبة، وتقدير المعيشة**».[1]

ما هو التَّفقُّه في الدِّين .. الذي عدَّه الإمام عليه السلام الكمال؟

عندما يقول الإمام عليه السلام: التَّفقُّه في الدِّين .. ما هو التَّفقُّه في الدِّين؟

• أنْ تكون لك رؤيتك الكونيَّة الصَّادقة الواعية المطابقة للواقع، بأنْ توحِّد الله سبحانه وتعالى، وترد الأمور كلَّها إليه، أنْ يكون توحيدك شاملًا صادقًا على مستوى الذَّات، وعلى مستوى الصِّفات، وعلى مستوى الفعل لله سبحانه وتعالى، وعلى مستوى العبادة، وعلى أيِّ مستوى من المستويات التي يأتي عليها التَّوحيد.

• التَّفقُّه في الدِّين، يعني أنْ تتوفَّر على رؤية واضحة للمفاهيم الإسلاميَّة، وأنْ تعرف مقاصد الإسلام والخطوط العريضة في

١ - الكافي، الشيخ الكليني، ج ١ ص ٣٢، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة- ١٣٦٣ ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.

أخلاقيَّة الإسـلام، وما يهم الإسـلام من الأهداف الكبرى التي لا يمكن التضحية بها.

• من التَّفقُّه في الدِّين، أنْ تعرف هذا الترابط المكين الشـديد بين وحدات النظام الإسـلامي المتكامل المتناسق، من التَّفقُّه في الدِّين أن تعـرف دوره في الحيـاة ورسـالته في الناس، وأنـك تعيش هذه الرسالة، وتعيش هذا الدور في حياتك كلها فكرًا، شعورًا، عملًا.

• مـن التَّفقُّـه في الدِّيـن، أنْ تعـرف دقَّـة الأحكام الإسـلامية في الفروع، في كلِّ عمل، في كلِّ حركة وسكون، وأنْ لا تقدم لهذه الدقة، ولهذه المعصـومية، ولهـذه العدالة في الحكم الإسـلامي، وأنه من حكم الله سبحانه وتعالى أنْ تقدِّم عليه أيَّ حكم آخر.

• مـن التَّفقُّـه في الدِّين، أنْ تعـرف ربطه بين الآخرة والأولى، وأنَّه يوجد التكامل والانسـجام والتفاعل المتكامل بين ما هو للدنيا وبين ما هو للآخرة، ولا يحدث انقسـامٌ في الإسلام بين تشريعاته للدنيا وبين تشريعاته للآخرة.

كل هذا وغيره هو من التَّفقُّه في الدِّين، وعند توفر الشخصـيَّة علـى هـذه الرؤية على هـذا التَّفقُّه يكـون قد توفر علـى انطلاقة

روحيَّة وعقليَّة صحيَّة متينة، تضمن له السلامة حين يعود لها في سلوكاته، في تصوره، في مشاعره، في علاقاته، بما هي قاعدةٌ ثابتةٌ متأصلة يرجع إليها كل حين، يراجعها فيما يصح وما لا يصح، فيما هو خيرٌ، فيما هو شر، فيما هو هدًى، فيما هو ضلال.

أهمية التَّفقُّه

لماذا هذه الأهمية للتَّفقُّه في الدِّين؟

لأنَّه لا تصح دنيا ولا تصح آخرة، بلا هذا التَّفقُّه في الدِّين، وأنتم ترون من آثار الانفلات عن الدِّين ما ترون.[1]

- «**ومن لم يتفقَّه في دينه لم يرض اللهُ له عملًا**».[2]

فيا أمَّة الإسلام - بشيوخها، بكهولها، بشبابها، بذكورها، بإناثها - تتحمَّلين مسؤولية التَّفقُّه في الدِّين، وليس من معنى هذا أنْ نتحوَّل كلُّنا فقهاء بالمعنى الاصطلاحي، وإنَّما على كلِّ واحدٍ أن يأخُذ من فهم الدِّين، وعلم الدِّين في كلِّ أبعاده ما يُقوِّم حياته، ويُصلحها.

١- خطبة الجمعة (٢٥) بتاريخ ٣ رجب ١٤٢٢هـ الموافق ٢١ سبتمبر ٢٠٠١م.

٢- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ١٠ ص ٢٤٧، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني، عبد الرحيم الرباني الشيرازي، الطبعة: الثانية المصححة - سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان.

- عـن الرَّسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «**إذا أراد اللهُ بعبـدٍ خيرًا فقَّهـهُ في الدِّين وألهمهُ رُشده**».[1]

ولا رُشـد بـلا فقه الدِّيـن، ومَن لا فِقه لـه، فمعناهُ أنَّـه بعدُ لم يوفِّقه الله للخير، ولا يتخلَّف توفيق الله وَعَجَّلَ لعبدٍ بما فيه خيرُه إلَّا بتقصيرٍ من العبد.

- الكلمـة عـن الرسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كذلـك: «**أُفٍّ لـكُلِّ مسـلم**» - وفي روايةٍ أخرى (أُفٍّ لكُلِّ رجُلٍ مسـلم)، والرَّجلُ هنا لا خصوصيَّة له، والمقصـودُ هو الرَّجـلُ والمرأة -، «**أُفٍّ لـكُلّ مسـلمٍ لا يجعلُ في كلّ جمُعةٍ يومًا يتفقَّهُ فيه أمرَ دينه، ويسألُ عن دينه**».[2]

في كلِّ جمعـة، بمعنى في كلِّ أسـبوع، لا أقلّ من يومٍ واحد يتفقَّه فيه المسلم والمسـلمة في أمر دينه، ويسألُ عن دينه؛ ليستزيد فهمًا في أهـم أمر، وفي القضـية المركزيَّة التي لا يرى الإنسـان المسـلمُ قضـيةً مركزيَّةً في حياته أكبر منها وهي دينُه، فالمسـاجدُ يجبُ أن تُعمر، وإذا لم تتَّسع فالحُسينيَّاتُ تنضم إليها.

١- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ١ ص ٨٤١، التحقيق والمطبعة والناشر: دار الحديث، الطبعة: الأولى.

٢ - ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ٣ ص ٢٤٥٤.

ولو نشطت حركة التَّفقُّه في الدِّين وحمل كلُّ رجُلٍ وامرأة، وكلُّ شابٍّ وشابَّة فهمًا كافيًا في دينه لتغيَّر واقعُ الأمَّة بمقدار ١٨٠ درجة؛ سيكبُر الله ويصغُر الطاغوت، سيكبُر الدِّين وتسقُط الأطروحات الأخرى، ستتركَّزُ العزَّةُ في النَّفس وستُطلَّق الذِّلَّة، سنتحوَّل إلى إيجابيَّات من دون سلبيَّاتٍ قاتلة، ستكون ثورة على مستوى العقل، وعلى مستوى النفس، وعلى مستوى العمل؛ ليتغيَّر واقع الحياة من واقعٍ دوني إلى واقعٍ مُتقدِّمٍ عملاق.

بهذا الدِّين، بهذا الفقه، صنع رسول الله ﷺ الأمَّة الجديدة التي سبقت بصُنعها الإسلامي كلَّ الأمم، بما سبقت هذه الأمَّة وقد بدأت معها التربية الإسلامية وهي في الحضيض، ثمَّ ارتقت على يد التربية الإسلامية، وفقه الإسلام بمعناهُ الكبير، حتَّى سبقت كلَّ الأمم، وهزمت الإمبراطوريَّات الأخرى.[١]

مسؤوليَّة فرد، ومسؤوليَّة أمَّة!

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.[٢]

١- خطبة الجمعة (٢٨٩)، ٧ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٢٢ يونيو ٢٠٠٧م.
٢ - التوبة/١٢٢.

النفر كافَّة لجهاد، أو فقه، أو تجارة، أو طبٍّ أمرٌ يعطِّل الحياة، لا يستقيم مع حياة المجتمعات، وإنَّما الممكن والواجب في الدِّين أنْ تملأ كلَّ ثغرات الحياة الاجتماعية والتي يتطلب صلاح المجتمع واستمراريته وتقدمه ملأها، ومن أهمِّ ما يجب أن يملأ في حياة الأمَّة الإسلاميَّة، وأن يُسدّ هو الفراغ الدِّيني، وحاجة المجتمع إلى فقه الدِّين، فإنه ممَّا يتَّصل بهُويَّة الأمَّة، ويمثّل استجابة لانتمائها، ويحدِّد لها مسارها، وترتبط به حياتها في دنياها وآخرتها.

المناسب هو أنْ تنفر طائفة من المسلمين؛ لطلب العلم، والنفر يحمل روح المسارعة، وروح الاهتمام، فالمسألة ليست مسألة هامشية إنما هي مسألةٌ صلبٌ - كما تقدَّم -، وتستحق من الأمَّة الاهتمام البالغ.

ونفر طائفة من المؤمنين للتَّفقُّه في الدِّين مسؤولية فرد ومسؤولية أمَّة، مسؤولية فرد قادر على التَّفقُّه، وقد أعطاه الله ﷻ من موهبة العقل، ودقَّة الفهم ما يؤهِّله لمثل هذه المهمة الكبرى، وهي مسؤولية أمَّة فعليها أنْ تفتح الطريق، وتسهِّل كلَّ المقدمات لوظيفة النَّفقة، وتصرُّ على فتح الحوزات والمدارس العلمية؛ من أجل أن يستمر هذا الدِّين في الأجيال.

ولماذا من كلِّ فرقة؟

لماذا هذا التَّنصيص على أن يكون النفر من كلِّ فرقة؟

فيما يستظهر - والله العالم - أنَّ طالب العلم والعالم إذا جاء من قبيلة معيَّنة، أو جاء من بلد معيَّن فهو أعرف بأحوال تلك البلد، وبين أهل البلد وبينه إذا كان من الثّقات الصَّالحين أُنسٌ وألفة، وهم أعرف به، والاطمئنان لَمن يتلقَّى منه الدِّين؛ من أجل صحته مطلوب، ولذلك يأتي النفر من كل فرقة، وحتّى لا يكون الدِّين في الاهتمام الأكبر به من وظيفة بلد خاص أو قبيلة معيَّنة، وحتَّى يتجلَّى اهتمام الأمَّة كلِّ الأمَّة بمسألة الدِّين يأتي التنصيص على أن يكون النفر من كل فرقة.

فكما يطلب في مورد الجهاد أن تشارك كل الأمَّة بمجاهديها، ولا يكون الخطاب بالجهاد لقبيلة معينة، أو قطر خاص حيث إن قضية الإسلام يجب أن تحتل الهمّ الأكبر لكل قبيلة ولكل بلد، فكذلك هو الجهاد الآخر جهاد طلب العلم، فوجب أن تظهر الأمَّة اهتمامها العملي فيما يتَّصل به، فيأتي النفر من كل فرقة، وحين يأتي النفر كذلك يسمح بالتغطية الشاملة لحاجة الدعوة، والتبليغ والإنذار.

النَّفر لتفقُّه أي شيئ؟

والآيــة الكريمــة تقــول: ﴿لِّيَتَفَقَّهُــواْ فِي الدِّيــنِ﴾[1]، ولم تقــل: (ليفقهوا الدِّين)، ومن أين لهذا الإنســان المحدود العمر، المحدود الفهم، غير المعصوم أنْ يحيط بدين الله كلِّه خبرًا وعلمًا؟!

أكثر فقيه تضــلُّعًا في الفقه وفي الدِّين لا نســتطيع أنْ نقول عنه بأنه قد أكمل فقه الدِّين، إنما له فقه في الدِّين، وفقه الدِّين يتفاوت بين عالم وعالم، وفقيه وآخر.

إنَّه التَّفقُّه وهو كالتعلُّم، يعني السعي لطلب فقه من فقه الدِّين، والأخذ عن طريق المجاهدة الفكرية بشــيئ من علم الإسلام، وإنَّه التَّفقُّــه الذي يعني طلــب الفهم الدقيق، والفهم المســتقرّ، والفهم المعمَّق، وإنَّه ليس تفقُّهًا في جنبة من جنبات الدِّين، كما في مساحة الأحكام الشــرعية الفرعية، فالنفر ليس لهذه الجهة فحسب، إنَّما النفــر؛ من أجل التَّفقُّه في الدِّين كلِّه، ومــا أكثر الأبعاد المعطَّلة في الإسلام والتي لم تفِ الأمَّة بعدُ بكلِّ جهدها واهتمامها بتغطيتها.

أبعاد في الدِّيــن لا زالت معطَّلة بلا فهم، وكنوز كثر لم يأتِ بعدُ رفع الغطاء عنها:

---

١ - التوبة/١٢٢.

تفقُّه في الدِّين، في عقيدته، ومداليل هذه العقيدة، والمقتضيات الفكريَّة والنفسيَّة والعمليَّة لهذه العقيدة.

- تفقُّه في أهداف الإسلام ومقاصده الكبرى.
- تفقُّــه يعطي إلمامة للمتفقِّه بالهيكليَّة العامَّة للإســلام، وبالبناء الإسلامي في أرضيَّته وفوقياته.
- تفقُّهٌ في رؤى الدِّين ومفاهيمه، في أخلاقيات الدِّين وسلوكياته.
- تفقُّه في أحكامه الشَّرعيَّة الفرعيَّة.

تفقّهٌ في الدِّين في نظريته الاقتصــاديَّة، والسياســيَّة والاجتماعيَّة، وغير ذلك من النظريات.

- تفقُّــه في الدِّيــن؛ للفهــم الــذي يقدمه للإنســان عن الإنســان، وللنفس البشــرية عن النفس البشــرية، وللكــون وللحياة وللموت، وللرجل وللمرأة، ولكلِّ صــغير وكبير ممَّا يتصــل بالبناء الصحيح لحياة الإنسان.

كلّ ذلــك من التَّفقُّه الذي من أجله النفــر والهجرة إلى مراكز الإشعاع الدِّيني المباركة.

كاد اشتغال الأمَّة في الكثير، ومن خلال عملية التَّفقُّه أنْ ينصبَّ على بُعدٍ أو بعدين، وهذا لا يكفي.

التَّفقُّه مسؤولية..

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾[1]، وهؤلاء الذين يتفقَّهون في الدِّين لا يرجعون إلى أقطارهم وبلدانهم؛ ليقبعوا في الزوايا المظلمة، إنَّما هم أبناء الحياة، وأبناء الجهاد وحملة الدعوة، والمسؤولون عن التنوير، بمعناه الإسلامي وليس بمعناه الغربي، وعن القيادة الفكرية للأمَّة على خطِّ إسلامها العظيم.

يأتون؛ ليحملوا لواء الدعوة، ولينذروا قومهم وهي وظيفة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.[2]

وإذا كان طلاب العلم والعلماء يتحمَّلون مسؤولية الدعوة ومسؤولية التبليغ، وأخذ المجتمع على طريق الله سبحانه وتعالى، فإنَّ واجب المجتمع المسلم التفاعل مع هذه الدعوة والتبليغ، ونشر تعاليم القرآن وفقه الإسلام في المجتمع، فلا بدَّ من متعلِّمين، ولا بدَّ من مقبلين على التَّفقُّه، لا بدَّ من محاضرات، لا بدَّ من ندوات،

١ - التوبة/١٢٢.
٢- التوبة/١٢٢.

لا بدَّ من خُطب، لا بدَّ من حوزات محلية، لا بدَّ من دورات تثقيفية، لا بدَّ من دورات فقهية تجعل الثقافة الدِّينية ليست ثقافة مجموعة خاصة في المجتمع، إذ أنَّ الإسلام من مسؤولية الجميع ودين الجميع، وكيف يكفي لأن تدخل الجنة أن يتفقَّه أخوك في الدِّين بينما أنت تجهله؟!

وقد كان في الأصل أنَّ الأمَّة كلَّها تنفر للتَّفقُّه في الدِّين لو لم تجد علمًا في بلدانها، لكن ولأن ذلك غير ممكن من ناحية عمليَّة كان لا بدَّ من أنْ تنفر طائفة، وليس كلُّ المؤمنين، وذلك كما في الحقول الأخرى التي تفرض ضرورتها على المجتمع الإنساني، وهذا هو الجاري في مثل الطب، والعمارة، والهندسة، والطيران وغيرها؛ فإنَّه كلَّما توقفت حياة المجتمع المسلم، وتقدَّم المجتمع المسلم على سائر المجتمعات على حقل من حقول المعرفة والعلم والخبرة كان ذلك من مسؤولية الأمَّة والأفراد، وكان على الأمَّة أن تسابق غيرها في هذا المجال وذاك، وأن تدفع بطائفة منها على هذا الطريق، وتسندها بكل الإمكانات.

فالغاية الكبرى من التَّفقُّه والعودة إلى الأقطار هو أخذ الأمَّة بمنهج الله، والاستقامة على طريقه سبحانه وتعالى.

عدم التَّفقُّه مأساة!

وإنَّ عدم التَّفقُّه ليمثِّل مأساة للأمَّة: تسقط قيمة الإسلام عند الأمَّة حيث لا تعرفه، وربَّما ضمرت الصورة الإسلامية في نفوس المجتمع الإسلامي وحتى متعلِّميه، لأنَّ الإسلام في شموليته، وفي عظمته لم نتعلَّمه، والمقتصر على تعلُّم بعد من أبعاد الإسلام إنَّما يرى جزء الصورة، ولا يرى الصورة كاملة على عظمتها، فحيث ينصب التَّعلُّم على الفروع الفقهية فحسب، فإن الصورة للإسلام في نفس متعلِّميه فضلاً عن غيرهم صورة مجزوءة لا تعبِّر بالكامل عن عظمة الإسلام، وإن كنت إذا توفَّرت على معرفة أي جَنْبة من جنبات الإسلام بصورة معمَّقة، فإنَّك ستكتشف عظمة هائلة لهذا الدِّين.

ستبعد الأمَّة بعدًا عمليًّا عن دينها حيث لا تفهمه وتنتشر الخرافات، وتتغلغل الانحرافات الخطيرة كما في مسألة التكفير، ومسألة الانعزال عن الحياة.[1]

ثمرات التَّفقُّه في الدِّين

تقول الكلمة عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**تفقَّهوا في دين الله، فإنَّ الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسَّبب إلى المنازل**

١ - خطبة الجمعة (٢٨٨)، ٢٩ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ، ١٥ يونيو ٢٠٠٧م.

الرَّفيعة والرُّتب الجليلة في الدِّين والدُّنيا، وفضلُ الفقيه على العابد كفضل الشَّمس على الكواكب، ومَن لم يتفقَّه في دينه لم يرض اللهُ له عملًا».[1]

تقدَّم أنَّ فقه الدِّين ليس بالمعنى المصطلحي السَّائد، وأنَّ فقه الدِّين يعني التَّوفُّر على معرفة الدِّين في كلِّ أبعادِه، واستلهام حقائق الدِّين، وأنْ تتحوَّل حقائق الدِّين إلى مشاعر، وإلى قناعات، وإلى سراجٍ ينير درب السَّائر.

فقهُ الدِّين ليس حمل معارفِه فحسب، إنَّما فقه الدِّين تشرُّب الرُّوح والقلب بحقائق الدِّين، وأنْ يرى القلبُ من حقائق الدِّين ألَّا شيئ يوازيها، ولا شيئ يقوم لمعارضتها، وأنَّ الحياة لا تستقيمُ ما حكم حقائق الدِّين لها؛ كلُّ ذلك وغيره ممَّا يزيدُ عليه هو من فقه الدِّين حقيقة.

- هذا الفقهُ «**مفتاح البصيرة**».

والبصيرة الوصول إلى حقائق الأمور، وليس العلم بالقشريَّات، والبصيرةُ هو ذلك الوعي للحقيقة والأخذُ بها سواءً كانت من حقائق النظر أم من حقائق التَّطبيق، هناك حقائق تتَّصلُ

١ - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ١٠ ص ٢٤٧.

بالنظرية وحقائق تتَّصلُ بالموقف العلمي، والبصيرة أنْ نصل إلى الحقائق، وأنْ نأخُذ، وألَّا نتخلَّف عنها؛ وهذا لا يمكن أنْ يكون من دون فقه الدِّين، وفقه الدِّين هنا مأخوذٌ بمعناه الواسع، وهو المعنى الذي استعملت فيه النصوص الإسلاميَّة قبل المصطلح الحادث كلمة الفقه، حين تقرأ كلمة الفقه أو مشتقَّات هذه الكلمة في نصٍّ من نصوص المعصومين عليهم السلام، أو في القرآن، فهي - في الغالب، أو دائمًا - إنَّما قد استُعملت في المعنى الواسع لهذه الكلمة.

- «**وتمامُ العبادة**» - وأيُّ عبادةٍ تُرفع إلى الله وهي عن جهل -.

- «**والسببُ إلى المنازل الرَّفيعة، والرُّتب الجليلة في الدِّين والدُّنيا**».

العمل على جهلٍ لا يوصلُ إلى مراتب عاليةٍ عند الله، ويبقى الإنسانُ جاهلًا ومعزولًا عن الرُّؤية الحقيقيَّة مادام لم يفقه الدِّين.

إمَّا فقهٌ للدِّين، وإمّا جهل بالدِّين، والجهلُ بالدِّين هو جهلٌ بطريق السعادة، وجهلٌ بطريق الصواب الذي يُطلبُ لا لبناء الآخرة فقط وإنَّما لبناء الدنيا كذلك - هذه الأمَّة الإسلاميَّة

لـو توفَّـرت على فقـه دينها، وأخذت به، وصـبرت عليـه، لما كانت أمَّة يمكنُ لها أن تُسـابقها في مسـتوًى اقتصـاديٍّ، أو سياسيٍ، أو اجتماعيٍّ، أو غير ذلك، هذا ما نقوله مؤمنين به بكُلِّ يقين -.

فضل الفقيه

- «**وفضلُ الفقيه على العابِد كفضل الشَّمس على الكواكب**».

الكواكبُ تأخُذُ من الشمس، أو الشمسُ تأخُذ من الكواكب؟

الكواكبُ تستقطبُها الشمس، أو الشمسُ تستقطبُها الكواكب؟

الكواكب تُنيرُ الشمس، أو الشمسُ تنيرُ الكواكب؟

الكواكبُ تتناثرُ لولا الشـمس، أو الشـمس هي التـي تنتهي لولا الكواكب؟

أصحاب المساجد، وأصـحاب التهجُّد، وأصحاب الأسحار إنَّما يحفظُهُـم على الخط الفقيه، والفقيهُ ليس بالمعنى الاصـطلاحيِّ، وإنَّما الفقيه بالمعنى الذي جاء في النصوص.

والفقيه بالمعنى الاصطلاحي قد يكونُ فقيهًا بالمعنى الواسع وقد لا يكون، والفقيهُ بالمعنى الواسع يمكنُ أن يكون غير فقيهٍ بالمعنى الاصطلاحي، وإنْ كان لا بدَّ له أن يتوفَّر على معرفة أحكام الشريعة بأيِّ طريقٍ من الطرق - هذا مُحتمل -، ومُحتملٌ أنْ كلَّ فقيهٍ بالمعنى الذي استعملته النصوص هو فقيهٌ وبعض الفقيه بالمعنى الاصطلاحي، فقيهٌ بالمعنى الذي استعملته النصوص.

من هو الفقيه؟

تحت عنوان: «من هو الفقيه» نقرأ شيئًا من النصوص..

- «إنَّ أفضل الفقه الورعُ في دين الله، والعملُ بطاعته، فعليك بالتَّقوى في سر أمرك وعلانيته».[1]

إذا رأيت مَن لا تقوى له، فاحكُم عليه مهما غزُر علمُه بأنَّهُ غيرُ فقيه، ورُبَّ حامل فقهٍ ومُستنبط للأحكام الفقهية ولكنه ليس بفقيه - ما فقِه الإسلام، ما عرف الإسلام على حقيقته، النفس التي لم يعظُم فيها الإسلام ويستقطبها لم تعرفه -.

إنَّه حاملُ فقه.

١ - ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ٣ ص ٢٤٥٥.

إنّهُ صاحب عقليَّةٍ رياضيَّة استنباطيَّة قادرة على أن تصل من المقدّمات إلى النتائج؛ لتكون هذه النتائج رؤًى، أو أفكارًا قابعةً في المُخِّ لا تنفعِلُ بها النَّفس، ولا تخلُقُ شعورًا، ولا تقود خُطًى، وهذا ليس هو الفقه.

وحين نأخذ الفقه بمعناهُ الاصطلاحي، فسنجمّدُ الدِّين ونقتُلُه، ونقدِّم في دين الله مَن لا يستحقُّ التقديم - الفقهُ بمعناهُ الاصطلاحي خطٌّ من خطوط الفقاهة في الإسلام، وبُعدٌ من أبعاد شخصيَّة الفقيه الحق، وليس هو كلُّ شيئٍ في الفقيه -.

ومَن لم يكُن له ورعٌ في دين الله، نمَّ ذلك عن جهله وعدم معرفته بالله وديـن الله، وكيف نطلق على مَن لم يعرف عظمة الله، وقيمة دين الله بأنَّه فقيهٌ من فقهاء الإسلام؟!

- إنَّ رجلًا جاء إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ ليُعلِّمهُ القرآن، فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]، فقال يكفيني هذا وانصرف.

فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «**انصرف الرَّجُلُ وهو فقيه**».[2]

١ - الزلزلة: ٧-٨.
٢ - المصدر نفسه.

هذا من أكبر الفقه وأنفعه، وهو ما يرمي إليه فقهُ الدِّين كلُّه.[1]

- عن عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلَا أخبركم بالفقيه حقِّ الفقيه؟ مَـن لم يرخِّص النَّاس في معاصي الله، ولم يقنطهم من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يدعْ القرآن رغبة عنه إلى ما سواه ...**».[2]

وهذا من فقه الأسلوب والدعوة، ومما يحتاجه المبلِّغ للإسلام، فلا بدَّ من الموازنة في مشاعر النفس، في خوفها من عدل الله، ورجائها في رحمته.

التركيز على رحمة الله عزوجل ورأفته، وعفوه وتسامحه، وكل ذلك حقّ، وممَّا يجب؛ إلَّا أنَّ التركيز على كلٍّ ذلك من غير أن نتذكَّر قدرة الله، وأليم عقابه، وأخذه الشديد للجبابرة والطغاة من خلقه، وللعصاة المصرِّين على مخالفته أمر لا تحتمله النفس البشرية؛ لتستقيم على الطريق، فإنَّ ذلك قد يُغريها حتَّى لتأخذ من الشعور المركَّز برحمة الله وعفوه طريقًا للتَّسامح في التعامل

١- خطبة الجمعة (٢٨٩)، ٧ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٢٢ يونيو ٢٠٠٧م.
٢ - ميزان الحكمة، ج ٧ ص٥٣١.

مـع الله ﷻ، والتركيـز علـى عـذاب الله، وشـدَّة أخـذه لعباده العاصـين دون الإلفات إلى رحمته وتوبته على الآئبين إليه سبحانه قـد ينحرف ببعض النفوس عن الطريق حيث يصـيبها اليأس من رحمة الله، ومن يئس من رحمة الله لم يطلب له سـبيلًا، ومن ظنَّ أنَّ هدفـه لا يتحقَّق يتوقَّف عـن المحاولة، فلا تقنيط، لا تيئيس من رحمة الله، ولا إغراء بالتسـاهل في ارتكاب المعاصي لعدم الإلفات إلى أخذ الله.

وشـيءٌ مهـمّ آخر، بل هو أسـاس متين في أمر الدعـوة والتبليغ وهـو أنَّ المبلِّغ الحـقَّ لا يدع القرآن رغبة فيه إلى ما سـواه؛ فثقافة التبليغ ثقافة قرآنية، فكر المبلِّغ فكر قرآني، مشاعره قرآنية، هدفه قـرآني، مَن يحملون الثقافة الغربيـة، أو يخلطون بين باطلها وحقِّ القرآن لا يمكن أن يكونوا ناطقين باسم القرآن.

مَن يبلِّغ الإسـلام، وينطق باسـم القرآن إنَّما هو إنسان يحتكم في كل ثقافتـه إلى ثقافـة القـرآن، ويُحاكم كل فكـره أمام محكمة فكر القرآن.

نحن محتاجون إلى العودة إلى الأصـالة أمام غزو التهجين، بل

غزو التغريب، ولا أصالة من غير عودة جادَّة إلى الثقافة القرآنية.

- سأل رجل الإمام الباقر عليه السلام عن مسألة، فأجاب.

فقال الرَّجل: إنَّ الفقهاء لا يقولون هذا![1]

فقال عليه السلام: «**يا ويحك**[2]**، وهل رأيت فقيهًا قطّ؟!**

إنَّ الفقيه حقَّ الفقيه الزَّاهد في الدُّنيا الرَّاغب في الآخرة، المتمسِّك بسنَّة نبيِّه».[3]

إنَّ الرجل قد رأى حملة فكر، مقلّدين كانوا أو مستنبطين، ولم يرَ كما في علم الإمام الباقر عليه السلام وتقديره فقهاء بحقّ، والفقيه بحقٍّ إنَّما هو من فقه الإسلام بأركانه، بأهدافه، بأخلاقيته، بمقاصده الكبرى، بروحيَّته، بنورانيته، وبأحكامه؛ فذلك الذي عرف الإسلام، واحتضنه قلبه، وتشرّبت به نفسه، فصاغ له الإسلام داخله هو الفقيه الذي كان يشير إليه الإمام عليه السلام، وذلك فقيه لا يمكن أن تعظم في عينه الدنيا وهو يرى الله، لا يمكن أن تكبر في عينه الدنيا وهو يعرف الشيئ الكثير عمَّا في الآخرة،

١ - هذا الجواب غريب، لم أسمعه من فقيه آخر.
٢ - كلمة فيها شيئ من التأنيب وإلفات النظر بجد.
٣ - المصدر نفسه.

لا يمكـن له أن تنهزم نفسـه أمـام إغراء، أو وعد أو وعيد ونفسـه وقلبه منشـدٌّ إلى الله، ذلك فقيه لا تغلبه الدنيا ولا تصـرعه، ومَن لم يزهد في الدنيا كان مغلوبًا لها.

إنَّ وراء ذلك الفقيه قلبًا قد اسـتقطبته الآخرة، وأكثر من ذلك قد اسـتقطبه جمـال الله، فيقـول الإمـام عليه السلام: «إنَّ الفقيه حقَّ الفقيه الزَّاهد في الدُّنيا، الرَّاغب في الآخرة، الـمـتـمِّسـك بسـنَّة النبيّ صلى الله عليه وآله».[1]

نعم، مَن رأى شـيئًا من عظمة الله، ومَن رأى شـيئًا من عظمة الإسلام كان الزَّاهد في الدُّنيا، الرَّاغب في الآخرة، المتمسِّك بسنَّة نبيِّه صلى الله عليه وآله.

انظروا إلى أثر الفقه في صـياغة النَّفس، الفقه بمعناه الواسـع العميق الذي مرَّت الإشارة إليه في حديث أو أكثر من حديث سابق.

انظروا للفقه كيف يصنع الرجال، وكيف يرتفع بالنظر والهمَّة، وكيف تتفه عنده الأشياء بعد أن يعظم الله عزَّ وجلَّ في قلبه.

١ - الكافي، الشيخ الكليني، ج ١ ص ٧٠، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة - ١٣٦٣ ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.

- «لا يفقه الرَّجل كلَّ الفقه حتَّى يرى النَّاس[1] في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعر[2]، ثمَّ يرجع إلى نفسه، فيكونَ هو أحقر حاقر لها».[3]

وربَّما ينصرف ذهن البعض إلى أنَّ هذا الشعور الذي يعيشه المرء أمام نفسه ربَّما يحفر فيها الشعور بالحقارة، والشعور بالدونية في التعامل مع غير الله، وهذا خطأ.

هذا الشعور بحقارة النفس إنَّما هو شعور أمام واحد فقط، أمام الغنى المطلق، والجمال المطلق، والحياة المطلقة، والكمال المطلق، حيث يعاين الإنسان نفسه عدمًا محضًا أمام الله ﷻ، وأن ليس له من شيئٍ يُذكر في نفسه ومن نفسه وبنفسه، إنَّما كلُّ

---

١ - ليس استهزاءً وليس استصغارًا، وإنَّما العظيم يصغر أمام من هو أعظم منه، وكلُّ جليل أمام الله حقير، وكلُّ قوة أمام قوة الله ﷻ لا أثر لها في النفس، وكل الجمال يذهب هباءً، ويتحول إلى لا شيئ، ولا يستقطب النفس، ولا ينشدَ إليه النظر من نفس ترى من جمال الله ما يبهرها.

٢ - جمع بعير، البعير على ضخامة جثَّته إلا أنَّه لا يمتلك الهيبة المعنوية في نفسك، وأنت تقوده، وأنت تدجِّنه، ولك السيطرة عليه.

البعير وهو على هذا الحال ليس الشيئ الذي يصرفك عن مصدر القوَة، وعن مصدر الجمال، وليس الشيئ الذي تتصاغر معه نفسك لتراه أكبر منك في معناه وإن عظم منه الجسم.

وكيف ينظر الرجل إلى نفسه في جنب الله تبارك وتعالى؟

هل يراها شيئًا بعد أن لم يرَ الناس شيئًا؟ الحديث يجيب.

٣ - المصدر ص ٥٣٣.

مذكـور فيه هو من جود الله، ومن فيض الله، وكيف يصـحُّ لي إذا أردتُ أن أعيش الشعور بالواقعية، وأن أكون موضوعيًّا والحال هذه أن أنظر لنفسـي شيئًا مسـتقلًّا أمام قدرة الله، وأمام وجود الله، أليس هو الوهم؟

أليس هو الخيال؟

لي نظرتـان في ذلـك الموقف؛ نظـرة للنفسـ في حقارتها حيث النظر إليها في ذاتها، ونظر إلى النفس قويَّة عزيزة شامخة كبيرة من حيث اتصـالها بالله مصـدر القوَّة والعزَّة والجمال، أما وأنت تنظر للناس كبارًا يسابقونك على قوَّتهم، وتسابقُهم على ضعفك، فـإنَّ ما يلازم هذا النظر أن تنظر إلى نفسـك حقيرة من غير أن تعالج هذه النظرة بنظرة عزَّة وكرامة وشـموخ وجمال ترفدك بها هذه العلاقة.[1]

فقه الدِّين والدنيا

- الكلمـة عن الرَّسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تقول: «**مِن فقـه الرَّجل أنْ يصـلح معيشته، وليس مَن حبَّ الدُّنيا طلب ما يصلحك**».[2]

١- خطبة الجمعة (٢٩٠)، ١٤ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٢٩ يونيو ٢٠٠٧م.
٢- ميزان الحكمة، ج ٧ ص ٥٣٤.

المنهج الإسلامي يعانق بين الدنيا والآخرة، والخطوة الصالحة في الدنيا خطوة في اتجاه الآخرة، والخطوة في اتجاه الآخرة لا تفصلك عن الدنيا الصالحة.

إنَّه المنهج الذي لا منهج يقوم مقامه في الأرض على الإطلاق.

وإنَّ للآخرة لفقها يصبُّ في صالح الدنيا، وإنَّ للدنيا لفقها لا ينفصل بها عن الآخرة في منهج الإسلام، فلا عجب أن تهتمَّ النصوص الإسلامية بإصلاح أمر الدنيا، وببناء نظام سياسي واقتصادي واجتماعي، ونظم أخرى تتلاقى وتتوافى كلُّها على مصلحة الإنسان، وإصلاح ذاته إسعادًا له في دنياه، وإعدادًا له لمستقبل آخرته، وهذا حديث منها.

ومن فقه المعيشة في الدنيا أنْ يعرف الإنسان كيف يصلح معيشته، وأنْ يتحرك في اتجاه إصلاح معيشته، ولا يضع قوَّة من قواه، ولا مالًا من ماله في غير موضعه المصلح لدنياه وآخرته.

إصلاح المعيشة بالتعرُّف على طرق الإنتاج الأوفر، وبالأخذ بالجدِّ في طلب المعاش الذي تصلح به الحياة الدنيا من غير أن يتحول المعاش إلى همٍّ أكبر يستقطب نفس الإنسان، ويستفرغ كلَّ قواها.

الهـدف هنـاك، الهدف بعيـد، الهدف الآخـرة، ولكن الطريق لإصلاح الآخرة هو الاستقامة على الطريق في الدنيا.

والإسـلام يريـد أن يبني الفرد القوي، ويريـد أن يبني المجتمع القوي، ومن أسـباب القوَّة أن لا تتدهور أحوال المعيشـة عند الفرد والمجتمع.

وكلمة الحق تحتاج إلى قوّة، ومن بين أسباب القوَّة التي يُستعان بها على انتشار كلمة الحق، واستقطابها لحركة الحياة، وسيادتها في الأرض أن نطلب صلاح المعاش، ولا يسمح أحدنا لنفسه أن يكون عالة حتى على أبيه، أو ولده.

وإذا كان هذا الفقه من فقه الدنيا، فإنَّه كما سـبق لا ينفصـل عن فقه الآخرة، فإن رجلًا يتحول إلى عالة على أحد من الناس مع قدرته على الكسـب لا يكون القـوي، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف.

وليس من حبِّ الدنيا طلب ما يصلحك، إنَّما حبُّ الدنيا المفسد النفس هو أن تستهلك الدنيا النفسَ، وتستقطب مشاعرها، وتكون همَّها الكبير الذي يصرف عن الله ﷻ.

نطلب الدنيا ولكن بلا ميل خاطرة، ولا ميل فكرة عن الله سبحانه وتعالى، عن الهدف الكبير وهو رضوان الله وطلب الجنَّة.

- الكلمة عن علي عليه السلام: «**إنَّ من الحقِّ أن تتفقَّهوا، ومن الفقه أنْ لا تغترّوا ...**».[1]

الفقه حقٌّ على الرجل والمرأة وهو فقه الدِّين والدنيا التي لم يفقها من قدَّمها على آخرته، والنفس التي تُصاب بالغرور هي نفس تمكّن منها الجهل، ولم تتلّ شيئًا من الفقه، ومن أوَّل الفقه أن نعرف أنفسنا، ومن عرف نفسه لا يمكن أن يصاب بالغرور.

كيف يغترُّ أحدنا وهو العبد المملوك لله سبحانه وتعالى بالكامل، وليست له أدنى استقلالية في ذاتٍ، في وجود، في حياة، في أثر.

الفقه والعبادة

- «**فقيه واحد أشدُّ على إبليس من ألف عابد**».[2]

عبادة العُبَّاد حين لا تقوم على فقه وعلى فهم لقيمة الدِّين فهمًا يعطيها الاعتزاز به، والتَّمسُّك به في أشدِّ الظروف هذه العبادة لا تحمي النفس من المنزلقات.

١- ميزان الحكمة، ج ٧ ص ٥٣٤.

٢ - المصدر نفسه.

وأمَّـة ليس فيها فقيه ما أسـهل على الفكر الآخر أن يسـتحوذ عليها، ما أسـهل على الغزو الفكري أن ينحـرف بها عن الطريق، والفقيه الذي أعنيه هو - كما تقدَّم - فقيه يعرف الإسـلام في كلَّ أبعـاده، ويعتزُّ به، وهـذا الفقيه خيمة أمَّة، قلعـة أمَّة، هذا الفقيه جيش عرمرم في وجه الغزو الفكريِّ والحضاريِّ، هذا الفقيه يُعطي الشعور بالعزة والصمود والقوَّة والقدرة على مواجهة أي غزوٍ؛ كان غزوًا عسكريًّا، أو غزوًا حضاريًّا، أو نوع من الغزو.

أمَّـا جهلة يسـجدون ويركعون مـن غير فهم للدِّيـن، ومن غير فهـم لأساسـاته، وما عليه وزنـه الكبير، ومن غـير التفات إلى ما عند الأمم الأخرى، والفراغ من أن ليس لذلك لها قيمة أمام قيمة الإسلام، فهؤلاء لا يقوم بهم الدِّين، ولا حفظ منهم لكيان الأمَّة.

ولذلك علينا لكي نعتزَّ بأنفسنا، لكي نقوى، لكي نصمد أمام أي غزو، وأمام الكلمات السـاقطة من غير الدِّينيين أن نمتلأ دينًا، أن نتوفَّر على فهم الدِّين، أن يصـدق انتماؤنا لدين الله وعيًا وشعورًا غزيرين عميقين واسعين.

- وفي سـياق الحديـث السـابق تأتـي الكلمـة عـن الإمـام زيـن

العابدين عليه السلام: «**متفقّه في الدِّين أشدُّ على الشَّيطان من عبادة ألف عابد**».[1]

أمَّا إذا اجتمع الفقه والعبادة - ولا بدَّ أن يجتمعا وإلَّا لم يكن هناك فقه، إذ العبادة لبُّ الدِّين، ولكنَّ العبادة التي هي اللبُّ هي العبادة عن وعي، وعن توقير للّه، وعن خضوع وخشوع، وعن شعور بالحاجة إلى اللّه في هذه العبادة، وهذا لا يكون إلَّا بفقه، ولا يكون إلا بمعرفة للّه، ومعرفة لدينه، أقول: والهدف هو أنْ يجتمع الفقه والعبادة - وإلَّا لم تكن هناك عبادة حقيقيَّة، ولم يكن هناك فقه صادق.

- وعن الرَّسول صلى الله عليه وآله: «**ما من شيئ أقطع لظهر إبليس من عالم يخرج في قبيلة**».[2]

تبقى القرية في حالة موات، والبلد كلُّه في حالة موات، والأمَّة كلها في حالة موات؛ فكرًا، شعورًا، إيمانًا، معرفة لعظمة الرَّب، معرفة لقيمة النفس، معرفة لقيمة الحياة، معرفة لقيمة الآخرة.

يبقى البلد الكبير، والأمَّة العملاقة في حالة تخلُّف، في حالة موات، في حالة حيوانية ساقطة، تبقى الإنسانية في تلك الأمَّة

١- ميزان الحكمة، ج ٧ ص ٥٣٤.
٢- المصدر، ص ٥٣٥.

نائمة، وبلا وعي لقيمة الحياة، وإنْ تقدَّمت الصناعة والتكنولوجيا إلا أنَّ الإنسان يبقى صغيرًا ما لم يكن وعيٍ لما هو دور الحياة، وعي لما هي حقيقة الإنسان، وعي لشيئ من عظمة الرَّب تبارك وتعالى.

نعـم، ويأتي الدِّيـن، ويأتي الفقيه الصَّـادق الـذي يحمل فقها صادقًا واعيًا، ويحمل إيمانًا جادًّا، ووعيًا كبيرًا، وهمَّة بالغة.

يأتي الفقيه الرسـالي، والذي يعرف حقَّ الله تبارك وتعالى ولا يخون الأمَّة، ولا تشتريه الأثمان، إلَّا رضوان الله والجنَّة.

هـذا الفقيـه تعمر به الحياة، تنبعث به الأمَّـة، يخرج الأمَّة من الظلمات إلى النور.

«مـا من شـيئ أقطع لظهر إبليس» يؤيسـه، يسـد عليـه أبواب الغواية، يقف في وجهه بقوة، يدفع شبهاته ووساوسه.

«ما من شـيئ أقطع لظهر إبليس من عـالم يخرج في قبيلة»، أو قرية، أو قِطر، أو أمَّة.

- ويقول الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا خير في عبادة ليس فيها تفقُّه، ولا خير في علم ليس فيه تفكُّر، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبُّر**».[1]

١- ميزان الحكمة، ج ٧ ص٥٣٥.

عبـادة بـلا تفقُّـه، بـلا معرفـة لعظمـة الله ﷻ، بلا شـعور بالعبوديَّـة أمـام ربوبيته قد يكون فيها منٌّ علـى الله، وتكون مليئة بالغرور، ومليئة بالتَّصوُّرات الجاهليَّة، قد يكون المعبود فيها جسمًا كبـيرًا عريضًـا في السـماء الأولى، أو في السَّـماء الثانية بتصـور خاطـئ من أنَّه الله تبارك وتعالى، والعبـادة عن غير فقه من فقه الفروع - أيضًا - ليست عبادة، لأنَّ العبادة لها حدود، ولها أحكام، ولا تسـتطيع أنْ تعبد الله إلا بالطَّريقة التـي أمر، أمَّا العبادة التي نخترع، فهي مردودة علينا.[1]

الفقهاء حصون الإسلام

- عـن الإمـام الصَّـادق عليه السلام: «**إذا مـات المؤمـن الفقيـه ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدُّها شيئ**».[2]

- وفي الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**إذا مات المؤمن ... ثلم في الإسـلام ثلمة لا يسـدُّها شـيئ، لأنَّ المؤمنين الفقهاء حصـون الإسلام كحصن سور المدينة لها**».[3]

١- خطبة الجمعة (٢٩١)، ٢١ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ٦ يوليو ٢٠٠٧م.
٢- ميزان الحكمة، ج ٧ ص ٥٣٥.
٣- المصدر نفسه.

سـبق الكلام عن أهميَّة الفقيه، ومقارنتـه بالعابد الذي لا فقه له، وهنا تُقدِّم لنا الأحاديث الشـريفة الفقيهَ حصـنًا من حصون الإسلام يقوم مقام حصن المدينة وسورها الذي يحميها من الغزو والعدوان.

الأمَّـةُ أيُّ أمَّة مسـتهدفة لأمم أخرى، حكومـات الأرض، وأمم الأرض وبأخلاقيَّات الأرض، وتوجُّهات الأرض همُّها التَّوسُّع والغزو والعدوان، ومـن أخطر أنواع الغزو كما تعرفون غزوٌ يفصـل الأمَّة عن هُويَّتها لتهون على نفسها، وتهون نفسها عليه، وهو الغزو الذي يريها أنَّها حقيرة، صغيرة دونيّة.

وإذا غزى هذا الشعور شخصًا أو أمَّة سقط ضحيَّةً للآخرين.

فما أسـهل على الإنسـان فردًا كان، أم مجتمعًا، أو أمَّة أنْ يبيع نفسه بأرخص الأثمان إذا سقط في نظر نفسه، وهانت عليه نفسه.

والأمَّة التي تشعر بهوان خطِّها، وبدونيَّة انتمائها هي أمَّة تكتنز شـعورًا بالحقـارة، وشـعورًا بالدُّونيَّة لا يقف بها دون أن تُسـتبعد، وتُذلَّ وتخدم الآخر.

هذا اللون من الغزو حُماة الأمَّة منه وجنودها هم الفقهاء.

الغـزو الفكـري، الغـزو الحضـاري حمـاة الأمَّـة منـه، وذادة الأمَّـة فيـه، هم الفقهاء الذين مرَّ وصـفهم، وأي غزو آخر - وكما تعرفون - من تاريخ هذه الأمَّة في ليبيا، في الجزائر، في مصر، في إيران، في العراق، في أفغانستان، في بلدان أخرى كالغزو العسكري كان الفقهاء في مقدمة أبناء الأمَّة وجنودها الذَّائدين عن حماها، وعن دينها، ومصالحها في وجهه.

فإذًا، نحن أمام حالة واقعية نشـهدها حاليًّا، ونعرفها تاريخًا، وهي من أنَّ الفقهاء حصون الأمَّة.

هم حصـون حصـن بعد حصن، واحدهم حصـن، فإذا كثروا كثرت الحصـون، وقد يكون الواحد حصنًا، بينما قد يكون العشرة حصـنًا، وذلـك راجـع إلى المسـتوى ودرجـة الإخلاص والأمانة والصدق والدِّين.

هـذا الفقيه الحصـن إذا مات ظلَّت الثَّغـرة مفتوحة، أو انهدم حصن من بين حصون الإسلام والأمَّة.

من يسـدُّ هذه الثَّغرة؟، فقيه آخر، وهذا يفرض المسـؤولية على الأمَّة أنْ لا تكفَّ عن تخريج الفقهاء العدول الصالحين، وإلَّا انهدم كيانها، وذهبت في مهبِّ الرِّياح.

المدينة بلا حصن من أيِّ لون لاضمان لبقائها.

الآن الدرع الصـاروخي الذي تسـعى إليه أمريكا حصن، وكان الجدار المحيط بالمدينة حصنًا.

اليوم القوة النووية، والسلاح الرادع حصن، وكل ذلك حصون مرئية ومحسوسة، وعلى المستوى المادي، وهي إنما تحمي الأمَّة من حيث الوجود المادي.

أما الحصـون التي تحمي الأمَّة معنويًّا، وتعطيهـا القوَّة المادِّيَّة أيضًـا، فهم رجال مخلصـون واعون يحملون الأمانة ومسـؤوليتها بصدق وإخلاص.

آفة الفقه والفقهاء

ولكل فئة من النَّاس آفة، ونقطة ضعف، ومسلك يسلكه الشَّيطان إليهم؛ ليسـتولي عليهم، ومن استولى عليه الشـيطان خسر نفسه قبل أن تخسـره الأمَّة، وأفسـد نفسه قبل أن يُفسـد الأمَّة، وما آفة العلماء يا أهل البيت صلوات الله وسلامه عليكم؟

- تقـول الكلمـة عـن الإمـام علـي عليه السلام: «**آفـة العلمـاء حـبُّ الرِّياسة**». [1]

١- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ١ ص ٨٤.

قـد يتقـدَّم عـالم في الأمَّة، قـد يتسـاوى فقيهـان أو أكثر من فقيهـين، والعلـم والفقاهـة وتقدُّم المسـتوى في أيٍّ بعد مـن أبعاد الشخصـية يغريها بأنْ تطلب المناصب، وهذا منفذ للشيطان كبير يسـتولي من خلاله على الإنسان، وينقله من ضفَّة الجنَّة إلى ضفَّة النار.

- «**آفة العلم ترك العمل به**».[1]

وبذلك يكون الإنسـان كالحمار يحمل أسفارًا، وليس هناك من علم يلزم العمل به، ولا تكتمل أمانته إلا بتطبيقه كعلم الدِّين، فإنَّه علـم للعمل، فإذا كان هناك علم يمكن أن يأخذ الصـفة التَّرفيَّة، فإن علم الدِّين يرفض هذه الصِّفة بالكامل.

- عـن الإمـام موسـى بـن جعـفـر عن آبائـه عليهم السلام، قـال: «**قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله: الفقهـاء أُمناء الرُّسـل ما لم يدخلوا في الدُّنيا.**

قيل: يا رسول الله، ما دخولهم في الدُّنيا؟[2]

قـال: اتِّبـاع السُّـلطان، فـإذا فعلوا ذلـك، فاحـذروهـم على

---

١ - المصدر نفسه.

٢ - أن يأكلوا، أن يشربوا، أن يتوفروا على شيء من المال الذي يصلح حالهم؟ أن يعتنوا بصحتهم وبصحة أبنائهم ومن يدخل في مسؤوليتهم؟، لا.

أديـــانـكـــم».[1]

اشـتُروا، ومن اشـترى لأهـل الأرض لا يعرف قيمـة الدِّين، ولا يصلح لحمل أمانة الدِّين، فلا بدَّ من الحذر منه.

ما اتِّباع السلطان؟

المصـداق الواضـح من ذلك والظاهر من الكلمة الشـريفة أنَّه الدخول مع السـلاطين في سياسـتهم، كما يهوون طمعًا في دنياهم أو خوفًا حتَّى من عقوبتهم بما لا يسـمح به الشـرع من تنازل، ومن ذلك - أيضًـا - أنْ يسـتولي هوى السُّـلطة على العالم، ومنه هوى الوجاهة، وهوى النُّفوذ الشـعبي، وأن يسـتقطب الـرأي العامّ من باب حبِّ الظهور، ومن باب عبادة الأنا.

إنَّه هوى الرئاسة.

إنَّـه هوى السـلطان، وهو لا يبقـي قيمة دينية صـامدة أمامه، يسحق كل القيم، ويحاول أن يتجاوز كل الأحكام الشرعية من أجل أن يتحقق «...، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على أديانكم».[2]

١- ميزان الحكمة، ج ٧ ص ٥٣٦.
٢ - خطبة الجمعة (٢٩٢)، ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ١٣ يوليو ٢٠٠٧م.

OlamaaBH OlamaaBH OlamaaBH OlamaaNet

ترحب بتواصلكم معنا، ويكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم:

هـــــاتـــف: ١٧٥٩٢٦٧٢ مبنى:٤٠ ، طريق ٤٨ ، مجمع ٤٤٤ ،

فـــــاكس: ١٧٥٩٦٥٤٠ حلة العبد الصالح - مملكة البحرين

الإدارة النسوية: ١٧٥٩٢٦٧٣ البريد الإلكتروني: info@olamaa.net

OlamaaNet OlamaaBH OlamaaBH OlamaaBH